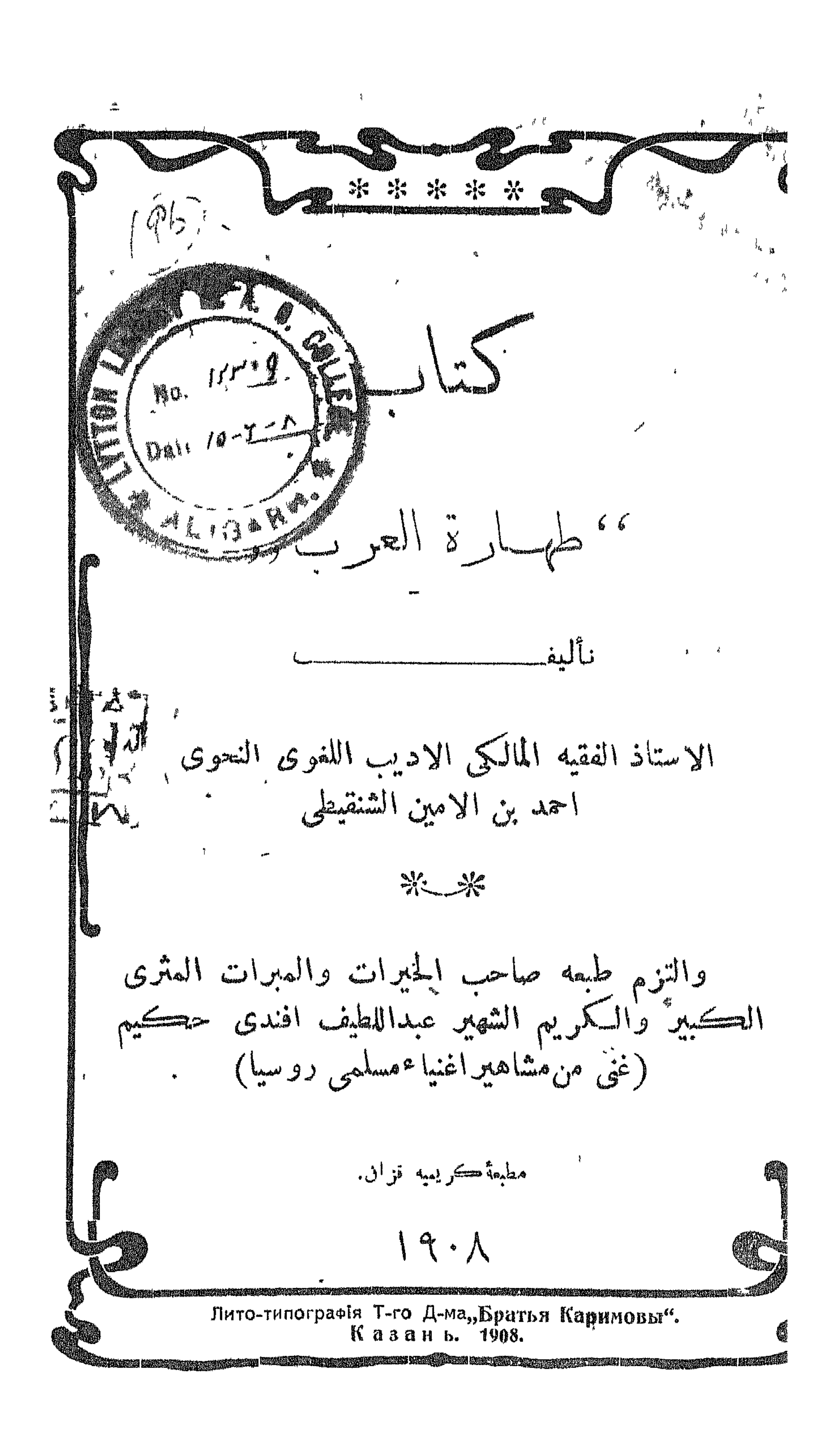


كتاب

"طهارة العرب"

تأليف

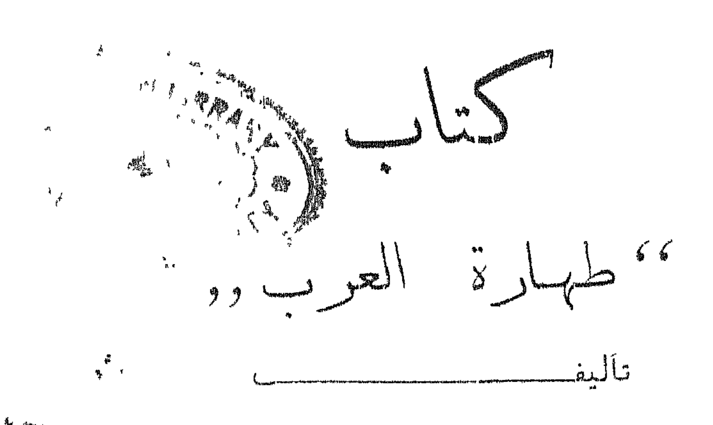
الاستاذ الفقيه المالكى الاديب اللغوى النحوى
احمد بن الامين الشنقيطى

والتزم طبعه صاحب الخيرات والمبرات المثرى
الكبير والكريم الشهير عبداللطيف افندى حكيم
(غنى من مشاهير اغنياء مسلمى روسيا)

مطبعة كريميه قزان.

١٩٠٨

Лито-типографія Т-го Д-ма „Братья Каримовы".
Казань. 1908.



كتاب

"طهارة العرب"

تأليف

الاستاذ الفقيه المالكى الاديب اللغوى النحوى
احمد بن الامين الشنقيطى

⁂

الفه الاستاذ اذ كان نزيلا بقازان فى رمضان سنة الف وثلاثمائة وست وعشرين (١٣٢٦) دفاعا عن الاسلام وذبا عن نبيه عليه الصلاة والسلام . بطلب رجل من مسلمى روسيا اطلعه على كتاب فى « الامومة عند العرب » مولف اصله بقلم عالم يونانى يبحث عن مسئلة علميه هى: « الابوة اقدم فى العالم ام الامومة ؟ » مترجم بقلم داع من دعاة النصرانيه استخدم هذه المسئلة فى الطعن على طهارة نسب العرب متدرعا به الى الطعن فى نسب نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ، مطبوع بقازان من زمن بعيد قد نشر منه نسخ كثيرة بين علماء روسيا ثم لم يوجد بينهم من يحمله دينه على الدفاع عن نبيه ويمكنه ادبه من وضع كتاب فى تنزيه العرب عن شين الاشتراك فى النسوة والازدحام على الفروج وقد كان ذلك الزم شىء يجب عليهم حيث تجدهم اعجل الناس ردا على كل كتاب يكتبه عالم اسلامى يهديهم الى هدى السلف ويذودهم عن باطل الخلف . فنحن نشكر حضرة الاستاذ على ما قام عنا بالزم فريضه علينا وعلى ما خدمنا فى ديننا حين كان ضيفا كريما عندنا .

قازان لليلتين مضتا من رمضان سنه ١٣٢٦   موسى جارالله .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمدا لمن رفع منار الحق واعلاه وقوض بنيان الباطل واوهاه . وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده محمد سيد الاولين والآخرين وعلى آله وصحبه الطاهرين .

وبعد فيقول جامع هذه السطور ان دعاة النصرانية قد خلعوا ربقة الاداب وتعدوا حدود القانون وصاروا ، حيث لم ينجحوا في امر الدعوة ، يهجمون على المسلمين ليفسدوا عليهم دينهم كرها او خدعا . ثم اني نظرت في كتاب « الامومة عند العرب » فوجدت غرضه الذي يرمى اليه الطعن في نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن طهره الله في الازل فلا يمكنه الخدش فيه بآخرة . فاردت ان اقيد بعض ما في ذهني من سيرة القوم دفاعا عن الاسلام وذباً عن نبيه عليه الصلاة والسلام ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المبطلون .

اما صاحب الكتاب المذكور فانه بناه على غير اساس واسسه على دعائم غير علمية . وجل اعتماده النقل عن سائح يوناني مجهول الحال لا يعرف لسان العرب ولا عوائدهم ولم يمر ببلد معروف من بلاد العرب ، او اقوال ضعيفة نقلها بعض المغفلين من اهل التاريخ ترجع الى كتاب مثالب العرب الذي وضعه زياد ابن ابيه . فانه لما ادعى اباسفيان ابا علم ان العرب لا تقر له بذلك مع علمها بنسبه فعمل كتاب المثالب والحق بالعرب كل عيب وعار وباطل وافك وبهت . ثم ثني على ذلك الهيثم بن عدي ؛ وكان دعياً فاراد ان يعر اهل الشرف تشفيا منهم . ثم جدد ذلك ابو عبيدة معمر بن المثنى وزاد فيه لان

اصله كان يهودياً . ثم نشأ غيلان الشعوبي الوراق وكان زنديقاً ثنوياً فعمل لطاهر بن الحسين كتاباً خارجاً عن حد الادب بدأ فيه بمثالب بني هاشم ثم بطون قريش ثم سائر العرب ونسب اليهم كل كذب وزور ووضع عليهم كل افك وبهتان . ووصله عليه طاهر بثلاثين الفاً .

ومما يستدل به هذا المتحامل على بطلان انساب العرب انتساب بعضهم الى امهاتهم . وسبب خطأ هذا الفهم عدم معرفته لعوائدهم . فان من عوائدهم انهم ينسبون الشخص الى مرضعته التي لم تلده وربما كانت مستأجرة . وربما نسبوه الى اخيه او عمه . من هذا تسميتهم شيبة جد النبي صلى الله عليه وسلم عبد المطلب . والمطلب كان عمه . وربما نسبوا الشخص الى زوج امه . واكثر من ينسبون الى امهاتهم الايتام الذين كفلهم امهاتهم .

لاجرم ان العرب اطهر نسباً من جميع الامم من سالف الدهر الى ان بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم . ويؤيد ذلك اعتراف اللورد كرومر لهم بحفظ النسب ومنع الجارمع شدة تحامله على المسلمين عموماً وعلى العرب خصوصاً . ومن كان اللورد كرومر انصف منه فان بينه وبين الاعتدال مراحل .

ربما حكى مؤلف هذا الكتاب عن المجوس شيأ يلائم غرضه . فيجزم بمجرد حدسه واستنباطه ان ذلك كان موجودا في العرب . وهذا حكم باطل وقياس فاسد لان مجرد الشك لا يصار اليه مع اليقين المتداول بين الناس .

قال مؤلف الكتاب المذكور « ان اقدم الاخبار التي وصلت الينا عن عرب الجاهلية هي ما نقلها السائح اليوناني الشهير سترابون في معجمه الجغرافي المشهور حيث جاء عن امر الزواج عندهم الى ان قال ولهم جميعا امرأة مشتركة يختلفون اليها ... الخ »

اقول لا يمكننا ان نأخذ بنقل هذا اليوناني وعندنا ما نعلم انه اصح واشهر. فمن ذلك :

ان اقدم العرب طسم وجديس. كانا في الدهر الاول فانقرضوا. وسبب انقراضهم الانفة مما ادعى هذا المتحامل وذلك ان ملكهم عمليقاً تعدى الحد في الظلم والتجبر. فاتته يوما امرأة من جديس اسمها هزيلة. وكان زوجها طلقها واراد ان ينزع منها ولدها. فقالت ايها الملك : اني حملته تسعاً، ووضعته دفعاً، وارضعته شفعاً؛ حتى اذا تمت اوصاله اراد ان يأخذه كرها، وان يتركني من بعده ورها. فقال لزوجها ما حجتك ؟ فقال ايها الملك : انها قد اعطيت المهر كاملاً، ولم اصب منها طائلاً، الا وليداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً. فامر بالغلام ان ينزع منهما جميعاً ويجعل في غلمانه؛ وقال لهزيلة : ابغيه ولداً، ولا تنكحي احدا، اواجزيه صفداً : فقالت هزيلة : اما النكاح فانما يكون بالمهر، واما السفاح فانما يكون بالقهر، ومالي فيهما من امر. فلما سمع عمليق كلامها امر ان تباع مع زوجها ويسترقا. فانشأت تقول :

«اتينا اخا طسم ليحكم بيننا * فانفذ حكما في هزيلة ظالما»
«لعمري لقد حكمت لا متورعاً * ولا كنت فيما يبرم الحكم عالما»

فاحدث هذا الهجو ان عمليقاً المذكور امر ان لا تزوج بكر من جديس الا افترعها. حتى كان آخر امره ان فعل ذلك بالشموس، فحرضت قومها بقولها :

لا احد اذل من جديس اهكذا يفعل بالعروس
يرضى بهذا يا لقومي حر اهدى وقد اعطى وسيق المهر
لاخذه الموت كذا لنفسه خير من ان يفعل ذا بعرسه

فلما سمع قولها اخوها الاسود قال لقومه يامعشر جديس : ان هؤلاء القوم ليسوا باعز منكم في داركم الا بما كان من ملك صاحبهم ؛ وانتم

اذل من النيب . فاطيعونى يكن لكم عز الدهر وذهاب ذل العمر .
فقالوا نطيعك . ولكن القوم اكثرمنا واقوى . فقال انى اصنع للملك
طعاما ثم ادعوهم اليه . فاذا جاؤا يرفلون فى حللهم مشينا اليهم بالسيوف
فقتلناهم . وانا انفرد بعمليق ، وينفرد كل واحد منكم بجليسه . فدعاهم
الاسود فجاؤا . حتى اذا اخذوا مجالسهم ومدوا ايديهم الى الطعام اخذ
الاسود وقومه سيوفهم من تحت اقدامهم (كانت مدفونة فى الرمل .)
فشد الاسود على عمليق فقتله ؛ وكل رجل على جليسه . فلما فرغوا من قتل
الاشراف شدوا على السفلة فافنوهم . ونجا بعض طسم فاستغاث بحسان
ابن تبع . فغزا حسان جديسا فقتلها وخرب ديارها وتفانى الحيان .
وهذا فيه دليل جلى على ان الاشتراك لم يكن فى العرب
الجاهلية اصلا . ولو كان الامر كما ذكر المتحامل لاحتجت هزيلة المتقدمة
به على زوجها وقالت ان الولد ليس منك وانما هو من غيرك . ويدل عليه
ايضا قولها واما السفاح فانما يكون بالقهر ؛ ولما اشمأز جديس من فعل عمليق .
ومن قديم غيرتهم قصة اجاء بن عبد الحى . وهو رجل قديم اقدم
من قصة الشموس المتقدمة . عشق امرأة يقال لها سلمى وكان لها حاضنة
يقال لها العوجاء فكان اجاء وسلمى يجتمعان فى منزلها حتى انذر بهما
اخوة سلمى وهم الغميم والمضل وفدك وفائد والحدثان وزوجها . فخافت
سلمى وهربت هى واجاء والعوجاء . وتبعهم زوجها واخوتها فلحقوا
سلمى على الجبل فقتلوها هناك فسمى الجبل باسمها . ولحقوا العوجاء على
هضبة بين الجبلين فقتلوها هناك فسمى المكان بها ولحقوا اجاء فى جبل
آخر فقتلوه فيه فسمى به . وانفوا بعد هذا ان يرجعوا الى قومهم فصار
كل واحد الى مكان فاقام به فسمى ذلك المكان باسمه . وفى هذه القصة
فائدة ادبية هى الرد على النحاة فى قولهم ان اجاء مؤنثة غير منصرفة لانه
جبل مذكر وسمى باسم رجل . فيكون مذكراً فى اصله .

ومن انفة العرب قتل آكل المرار امرأته هنداً لما سباها ابن الهبولة وكان غائباً . فلما قدم تبعه وقتله؛ وانقذها منه وربطها في اذناب الخيل حتى تقطعت اوصالها . ولم يرض لنفسه ان يمسكها بعد ان نال منها ابن الهبولة وطره .

ومن انفة نساء العرب قصة فاطمة بنت الخرشب الانمارية احدى المنجبات وهي ام الكملة من بني عبس . وكانت وقعت شحناء بين ابنها الربيع وابن عمه قيس بن زهير وسببها ان الربيع اغتصب درعاً لقيس وابى ان يردها فاعترض قيس امه المذكورة في ظعائن من بني عبس فاقتاد جملها يريد ان يرتهنها بدرعه . فقالت له اين ضل حلمك ياقيس ؟ اترجو ان تصطلح انت وبنو زياد ابداً وقد اخذت امهم فذهبت بها يميناً وشمالاً فقال الناس في ذلك ما شاؤا ، وحسبك من شرّ سماعه ؟ فارسلتها مثلا فعرف قيس ماقالت ، فخلى سبيلها ، ثم طرد ابل الربيع ، بل قيل ابلهم كلّهم فباعها بمكة لعبدالله بن جدعان فقال في ذلك :

« الم يأتيك والانباء تنمي . بما لاقت لبون بني زياد »
« ومحبسها على القرشي تشرى . بادراع واسياف حداد »
كما لاقيت من حمل بن بدر   واخوته على ذات الاصاد
هم فخروا على بغير فخر   وردوا دون غايته جوادي
وكنت اذا منيت بخصم سوء   دلفت له بداهية نآد
بداهية تدق الصلب منهم   بقصم اوتجوب عن الفوآد

القرشي هو عبدالله بن جدعان . وكان قيس باع الابل له . دلفت زحفت اليه . ونآد صفة داهية يقال نأدت الداهية فلانا دهته . وذات الاصاد اسم موضع . ولو اخذ امهم لعظم الخطب ولافضى ذلك الى سفك الدماء . فعدل الى الابل . وكان الربيع هو الذى تولى عبء حرب داحس والغبراء انتصاراً لقيس .

ومن عقل فاطمة الانمارية المذكورة سابقا قصتها مع الضيف الذى استضافها فاكرمته واحسنت قراه فراودها عن نفسها فزجرته فلم ينته. فامرت عبيدها فكتفوه ونحته وبعثت الى ابنها الاكبر فاخبرته بما جرى فاشار اليها بقتله وكل اخوته يشير اليها بذلك سوى الربيع فانه قال ان قتلناه قال الناس فعل بامهم. فسمته الكامل. ثم ان الربيع اكرمه وشيعه. ولما انفصلا عن الناس قال له قبحت من ضيف.

ومن انفة العرب وعدم تساهلهم فيما رماهم به هذا المتحامل قصة النعمان مع المتجردة. فانه لما اطلع على ما بينها و بين المنخل من الريبة قتلهما.

ومن امثال العرب القديمة: «كل شيء مهه ما خلا النساء وذكرهن» اى يسير سهل يحتمله الرجل حتى يأتى ذكر حرمه فيمتعض.

فمن عدم مساهلتهم فى ذكر امهاتهم قصة جذع بن سنان الذى يضرب به المثل: وهى ان عامل الملك اتاه فى خرج وجب عليه فدفع اليه سيفه رهناً فقال له «ادخله فى حر امك» فغضب جذع وقنعه به. فقيل «خذ من جذع ما اعطاك.» فذهبت مثلاً.

ومن ذلك قصة عمرو بن كلثوم التغلبي. وملخصها: ان عمرو بن هند الملك المشهور سال هل فى العرب امرأة تأنف من خدمة امى؟ فقيل له: ان هند بنت مهلهل ام عمرو بن كلثوم تأنف من خدمة امك. فدعا الملك ابنها للمنادمة وامره ان يستصحب امه معه. فضربت للملك وابن كلثوم خيمة. ولامهما اخرى. وامر الملك امه ان تستخدم ام ابن كلثوم ولو بقليل. فطلبت ام الملك منها ان تناولها شيأً. فقالت لها «لتقم صاحبة الحاجة لحاجتها.» فلطمتها. فصاحت: «واذلا لامك يا عمرو؟» فاخترط سيفه وقتل الملك وقال معلقته المشهورة. منها:

تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لامك مقتوينا

ومن ذلك قصة ابن دارة : فانه هجا زميل بن ابيرد وقال :

«ابلغ فزارة انى لن اسالمها   حتى ينيك زميل ام دينار»

وام دينار كنية ام زميل . فاقسم زميل «لا يغسل رأسه ولا يأكل لحماً حتى يقتله .» فضربه ضربة مات منها . فقال الكميت بن معروف:

فلا تكثروا فيها الضجاج فانه   محا السيف ما قال ابن دارة اجمعا

وكان ذلك فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ولو كان شكاه اليه لحبسه . كما فعل بضابئ البرجمى :

فانه استعار كلباً من بعض بنى جرول بن نهشل وكان يصيد به الوحش والظباء والضباع . فطال مكث الكلب عنده فطلبوه فامتنع من رده . فركبوا يطلبون كلبهم . فقال لامرأته اخلطى لهم فى قدرك من لحوم البقر والظباء والضباع فان عافوا بعضاً واكلوا بعضاً تركوا كلبك لك . وان هم لم يفرقوا فلا كلب لك . فلما اطعمهم اكلوه ثم اخذوا كلبهم . فغضب وقال ابياتا رمى فيها امهم بذلك الكلب . منها :

فيا راكبا اما عرضت فبلغن   امامة عنى والخطوب تدور

فامكم لا تسلموها لكلبكم   فان عقوق الوالدات كبير

فشكوه الى عثمان رضى الله عنه فحبسه . اما زميل فان الغضب حمله على قتل ابن دارة فقتله وقتل به .

ومما ينظم فى هذا السلك قصة تابط شراً مع زوج امه ابى كبير الهذلى : فان تابط شراً مات ابوه وهو صغير لا يعقل فلما ادرك سأل امه «من هذا الذى اراه عندك ؟» فاخبرته انه زوجها . فاقسم لا يراه عندها الا قتلهما . فامرت ابا كبير بقتله . فاحتال ابو كبير لذلك . فلما لم يقدر عليه تركها .

ومن ذلك قصة ابن الدمينة : فان امرأته رميت بشخص فبدأ بمن رميت به فقتله . وثنى بها وثلث ببنتها منه فقتلها . وقال : «لا تتخذ من كلب سوء جروا .»

ومن ذلك قصة هدبة بن خشرم وابن عمه زيادة . وملخصها انهما خرجا في ركب من قومهما . فكانا يتعاقبان السوق . فارتجز زيادة وذكر اخت هدبة فقال :

« عوجي علينا واربعي يافاطما   مابين ان يرى البعير قائما »
« الا ترين الدمع مني ساجما   حذار دار منك ان تلائما »
« فعرجت مطرداً عراهما   فعماً يبذ القطف الرواسما »
« كان في المثناة منه عائما   انك والله لان تباغما »
« خوداً كان البوص والمآكما   منها نقاً مخالطاً صرائما »
« خير من استقبالك السمائما   ومن مناد تبتغي معاكما »

فغضب هدبة حين سمع زيادة يرتجز باخته فنزل فرجز باخت زيادة وكانت تدعى ام خازم فقال :

« لقد اراني والغلام الحازما   نزجي المطي ضمراً سواهما »
« متى تقول القلص الرواسما   والجلة الناجية العياهما »
« يبلغن ام خازم وخازما   اذا هبطن مستحيراً قاتما »
« ورفع الحادي لها الهماهما   الا ترين الحزن مني دائما »
« حذاً رداً منك ان تلائما   والله لا يشفي الفؤاد الهائما »
« تمساحك اللبات والمآكما   ولا اللمام دون ان تلازما »

فتشاتما وتسابا طويلا فحجز بينهما القوم حتى امسك كل واحد منهما عن الاخر وبقي كل مضطغنا على الاخر . وكان هدبة يرى انه مظلوم لان اخته كانت معه . فقتل زيادة بعد ذلك . فاقيد به وكانت هذه الواقعة في خلافة عثمان .

وهذا يدفع ماذكره المتحامل من ان العائلات كانت شركاء . وهذان الشخصان وان كانا في صدر الاسلام فامرهما هذا من الاخلاق المالوفة قبل الاسلام ولان قبيلتهما من آخر العرب اسلاما .

حل غريب هذه الابيات : ما بين ان يرى البعير قائماً اى ما بين مناخ البعير الى قيامه . مطردا اى متتابع السير . عراهما اى شديداً . فعماً اى ضخما . الرواسم اى الابل التى تسير سيراً فوق العنق . والرسيم هو السير فوق العنق . والمثناة الزمام . عائماً اى سابحاً . لان تباغم اى لان تكلم . والبوص اى العجز . والمآكم ماعن يمين العجز وشماله . والنقا ماعظم من الرمل . والصرائم دونه . والسمائم جمع سموم وهى الريح الحارة تكون غالبا بالنهار .

السواهم جمع ساهمة وهى الضامرة . متى تقول : هذا شاهد من شواهد اعمال القول عمل الظن . والجلة بالكسر كبار الابل . والناجية السريعة تنجو بمن يركبها . والعياهم جمع عيهم وهى الناقة الحسنة الخلق . والمستحير هو القفر الذى يحار فيه القوم . والقاتم هو الكثير القتام وهو الغبار . والحادى الذى يحدو الابل . والهماهم جمع همهمة وهى الصوت . والتمساح من المسح . واللمام الزيارة غباً . والمعنى لا يشفى الفؤاد الهائم كثرة مسحك لبات ام خازم ومآكمها ولا زيارتها غباً . وانما يشفيه ان تلازمها من غير فراق .

ومن هذا قصة القتال الكلابى مع ابن عمه زيادة . فانه رآه يكلم اخته . فاقسم ان رآه مرة اخرى ليقتلنه . فرآه يوماً آخر فحمل عليه ليقتله . ففر عنه وجعل ينا شده الله والرحم ويقسم له انه لا يكلمها ابداً . فلم ينته عنه . فمر القتال برمح مركوز فعطف عليه فقتله فندم . وقال :

« نشدت زياداً والمقامة بيننا وذكرته ارحام سعد وهيثم »

« فلما رأيت انه غير منته املت له كفى بلدن مقوم »

« ولما رأيت انى قد قتلته ندمت عليه اى ساعة مندم »

وهذا مشهور عن العرب حتى ان احدهم اذا اراد ان يقرع عدوه يذكر حرمه . وذلك هو الصدع الذى لا ينجبر .

ومن ذلك قصة الاقيشر واسمه الاسود . والاقيشر لقب كان يغضب منه . فانه مر بناد من بني عبس . فدعاه احدهم بالاقيشر فاجابه وقال

« اتدعوني الاقيشر ذلك اسمي   وادعوك ابن مطفئة السراج »
« تناجي خلها بالليل سراً   ورب الناس يعلم ماتناجي »

فسمى الرجل ابن مطفئة السراج وانسحب ذلك اللقب على بنيه من بعده . ولم يعيرهم باكثر من ان امهم تطفي السراج لتكلم خلها . ففضحهم بهذا . وهذا يدل قطعا على تحاشي القوم ممارماهم به هذا المتحامل .

ومن ذلك قصة الشماخ بن ضرار الغطفاني . وكان اقبل من مصر في نفر من قومه ومعهم جماعة اخرى وكانوا يتعاقبون على السوق . فعرض الجليح بامرأة الشماخ فقال :

طيف خيال من سليمى هائجي   والقوم بين لفلف وعالج
بينهما في طرق مناهج   تخدي بنا كل خنوف فاسج
ياليتني كلمت غير حارج   ام صبي قدحبي اودارج
غرثى الوشاح كزة الدمالج

فغضب الشماخ فنزل وعرض بامراته . فاخترط القوم سيوفهم وهموا بالمقاتله . وكان ذلك ليلاً فادعى احد رفقائهم انه نهش . فاقبلوا يسقونه ويعالجونه حتى سكن مابهم .

ومما يوضح ذلك ايضاقصة الحطيئة . وكان نزل على بني بغيض لما تحول عن الزبرقان فسالوه ان يخبرهم بما يحب ليفعلوه وبما يبغض ليجتنبوه فنهاهم ان يغني احد شبانهم بحيث تسمع بنته . وكان الحطيئه هذا مغموز النسب مشهوراً بالدناءة واللؤم في الجاهلية وبقلة الدين لما اسلم وكان لايقرى الضيف ، وربما قراه ومن عليه به وكان يحرض العرب على الردة ويقول :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا   فيالهفتا ما بال دين ابي بكر

ايورثها بكراً اذا مات بعده   وتلك لعمر الله قاصمة الظهر

واذا تدبرت ما حكى هذا المتحامل وجدته يخالف سيرة القوم: فانهم كانوا يعيبون من راوا منه الميل الى السفه. وكان كليب المشهور يعيب اخاه مهلهلاً ويسميه زير النساء. ولما قتل كليب واخذ اخوه مهلهل بثاره قال قصيدته التي منها:

« فلو نبش المقابر عن كليب   فيخبر بالذنائب اى زير »

« بيوم الشعثمين لقر عيناً   وكيف لقاء من تحت القبور. »

والذنائب موضع. ويوم الشعثمين يوم لمهلهل على بنى بكر.

ومن الدليل على انهم كانوا لا يسامحون احداً فى فعل القبيح ان حسان ملك حمير وهو احد الاذواء غلب عليه لقباً « ذو معاهر » لانه كان يرمى بالفجور.

ومما جر المنافرة بين علقمة بن علاثة وبين ابن عمه عامر بن الطفيل قول علقمة له: « انك اعور البصر عاهر الذكر. وانا عفيف. »

وهذا مشهور عن العرب حتى ان الرشيد الخليفة العباسى قال: « ما احوجنا الى اخلاقهم مع ديننا. »

ولقريش من الطهارة والعفاف والانفة ما ليس لغيرهم: يشهد لذلك قول عبدالله بن عبدالمطلب والد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد راودته امرأة ذات جمال عن نفسه:

« اما الحرام فالممات دونه   والحل لا حل فاستبينه »

« وكيف بالامر الذى تأتينه   يحمى الكريم عرضه ودينه. »

وقالت هند بنت عتبة، لما تلا عليها النبي صلى الله عليه وسلم « ولا يسرقن ولا يزنين » (سورة الامتحان - ١٢)، : ما اقبحه حلالاً. فكيف به حراماً! »

اما الحجاب فانه كان معروفاً عندالعرب . والاسلام زاده

كانت الجارية من قريش اذا بلغت مبلغ النساء يدخلها اهلها دار الندوة فيكسوها رجل من بنى عبدالدار يسمونه محيضا فتحجب . وكذلك من يعتد به من قبائل العرب . يشهد لذلك قول مضرس بن ربعى الاسدى وهو جاهلى :

« ويوم من الشعرى كان ظباءه كواعب مقصور عليها ستورها »
« نصبت له وجهى وكلفت حميه افانين حرجوج بطيىء فتورها »

ولولا ان الحجاب معلوم عنداهل الجاهلية لماشبه الظباء الكوانس بكواعب مقصور عليها ستورها .

ويدل عليه قول عمرو بن معدى كرب الزبيدى يصف بعض حروبه فى الجاهلية :

لما رايت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا
وبدت لميس كانها بدر السماء اذا تبدى
وبدت محاسنها التى تخفى وكان الامر جدا
نازلت كبشهم ولم ار من نزال الكبش بدا

يعنى ان محاسنها انما بدت لشدة الفزع . ولولا ذلك لم تظهر .

وقال الآخر :

« جزى الله يوم الروع خيرا فانه ارانا على علاته ام ثابت »

وقال قيس بن زهير :

اخى والله خير من اخيكم اذا الخفرات ابدين الخداما
قتلت به اخاك بخير عبس فان حربا حذيف وان سلاما

وقال الآخر :

فلا تعذلى فى حندج ان حندجا وليث عفرين لدى سواء
حميت عن العهار اطهار امه وبعض الرجال المدعين جفاء
فجاءت به سبط العظام كانما عمامته بين الرجال لواء

ولسنا نريد بالحجاب في الجاهلية الحجاب الذى امر به في الاسلام. لان حجاب اهل الجاهلية كان يبدأ من ادراك الجارية فاذا تهذبت وعلمت مايقبح ومايحسن يصير في صورة غير تلك . فمن هناك كانوا يتسامحون في بعض الحديث اذا نفيت الريبة. يدل على ذلك وصف اهل الجاهلية النساء بربات الخدور ونحو ذلك . قال امرؤ القيس :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة   فقالت لك الويلات انك مرجلي

والخدر ستر يمد للجارية في ناحية البيت وعلى الهودج

وله ايضاً

وبيضة خدر لايرام خباؤها   تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت احراساً واهوالاً معشر   على حراص لو يسرون مقتلي

اذا ماالثريا في السماء تعرضت   تعرض اثناء الوشاح المفصل

اى رب امرأة لزمت خدرها تشبه البيضة تمتعت بها غير خائف من احد . يصف نفسه بالعظمة لانه كان ملكا . والمرأة تشبه بالبيضة من ثلاثة اوجه : ١) الصحة والسلامة من الطمث ٢) الصيانة والستر لان الطائر يصون بيضه ويحضنه ٣) صفاء اللون ونقاؤه .

وقوله لو يسرون مقتلي اى هم حراص على اسرار قتلي . وذلك غير كائن لنباهتي وذكرى , وهذا دليل على ما قصدنا لانه مع قوته ماامكنه الوصول اليها الا بعد نوم الحرس واعترف انهم لو امكنهم قتله لفعلوا .

ومما يوضح ان النساء في الجاهلية كن يحتجبن قول سبرة بن عمرو الفقعسي يهجو بنى نهشل وهو جاهلي مشهور :

«اضمر بن ضمرا بلق الاست والقفا   وهل مثلنا في مثلها لك غافر »

« اتنسى دفاعي عنك اذ انت مسلم   واذ سال من ذل عليك قراقر »

« ونسوتكم في الروع بادوجوهها   يخلن اماء والاماء حرائر »

« يسلخن بالليل الشوى باذرع   كايد السباع والرؤس حواسر »

قوله « ونسوتكم في الروع .. » معطوف على جملة الحال السابقة قال المرزوقي وصف الحال التي مني بها حين نصره مخاطبه . والمعنى ان نساءكم تشبهن بالاماء مخافة السبي حتى تبرجن وبرزن مكشوفات ناسيات للحياء وان كن حرائر . وانما قال هذا لانهم كانوا يقصدون بسبي من يسبون من النساء الحاق العار واغتنام الفداء والمال . ولما كان الامر على هذا فالحرة في مثل ذلك الوقت كانت تتشبه بالامة لكي يزهد في سبيها . ومعنى والاماء حرائر ان اللاتي يحسبن اماء حرائر ولو قال تخال اماؤهن حرائر لكان مأخذ الكلام اقرب . لكنه عدل الى والاماء حرائر ليكون الذكر افخم . انتهى . فاذا ذمهن في هذه الحالة بكشف الوجوه فذلك دليل على ان العيب في حال السلم احرى .

ولما بينت ان العرب كانوا يحجبون نساءهم اردت ان اتبع ذلك بصيانتهن لانفسهن وحفظهن لازواجهن .

فمن ذلك : ان الخنساء حضرت حرب القادسية ومعها بنوها . اربعة رجال . فقالت لهم : « يا بني ! انتم اسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين . والله الذي لا اله غيره انكم لبنو رجل واحد ، كما انكم بنو امرأة واحدة . ماخنت اباكم . ولا فضحت خالكم . ولا هجنت حسبكم . ولا غيرت نسبكم . وقد تعلمون ما اعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين . واعلموا ان الدار الباقية خير من الدار الفانية : يقول الله « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فاذا اصبحتم غداً فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين ، وبالله على اعدائكم مستنصرين . فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها وجللت ناراً على ارواقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة . »

فلما اضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم فتقدموا واحدا بعد واحد ينشدون الاراجيز . فقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً . فاما بلغها الخبر قالت : « الحمد لله الذى شرفني بقتلهم . وارجو من ربى ان يجمعنى بهم فى مستقر رحمته . » فكان عمر رضى الله عنه يعطيها ارزاق اولادها الاربعة لكل واحد منهم مائة درهم حتى قبض وماتت الخنساء .

(فانظر يرحمك الله الى هذه الشهامة والى مثل هذه الهمة العالية من امرأة عربية ! وهل صدر مثل هذه الخطبة ومثل هذا الاستبشار بشهادة الابناء من كبار الساسة وعظماء القادة ؟ . لا والله ! ولو وجد من بين الساسة والقادة مثلها لنصبوا له هيكلا من فوق السماوات .)

ومما يصدقها فيما وصفت به نفسها من الصيانة حديثها مع اخيها صخر . وكانت ذهبت اليه تستجديه لما املق زوجها فى المقامرة . فقاسمها صخر ماله . واعطاها خير النصفين . فاقبل زوجها يعطى ويهب ويحمل حتى انفده . فاتته فقاسمها ماله واعطاها خير النصفين الى الثالثة . فقالت امرأته اما ترضى ان تقسمها مالك حتى تعطيها خير النصفين فقال :

والله لا امنحها شرارها وهى حصان قد كفتنى عارها
ولو هلكت مزقت خمارها واتخذت من شعر صدارها

ومن عفافهن قصة فتاة غاب عنها زوجها . فخرجت يوماً لحاجة لها فمر بها راكب فراودها عن نفسها فحثت التراب فى وجهه واخبرت امها وانشأت تقول :

يا امتا ابصرنى راكب يسير فى مسحنفر لاحب
فقمت احثى الترب فى وجهه عمداً واحمى حوزة الغائب

فردت عليها امها :

« الحصن ادنى لو تآيته من حثيك الترب على الراكب »

فان امها عابت عليها مفارقة حصنها وجعلته اولى لها من حثى الترب

فى مسحنفر اى فى طريق ماض ممتد مستو . ولاحب اى بين واضح . واحمى حوزة الغائب اى امنع من يريد حق الغائب بسوء . لو تآ بيته اى لو تعمدته .

ومن صيانتهن وحفظهن لازواجهن قصة ليلى الاخيلية لما قدمت على الحجاج ومدحته واستنشدها الحجاج من شعرها وشعر توبة بن الحميرى الذى كان يتعشقها حتى انشدته ابياتاً لتوبة يذكرها فيها :

« وكنت اذا ما زرت ليلى تبرقعت وقد رابنى منها الغداة سفورها »

« وقد رابنى منها صدود رأيته واعراضها عن حاجتى وبسورها »

فقال الحجاج ياليلى ، ما الذى رابه من سفورك ؟ قالت يا ايها الامير كان يلم بى كثيراً فارسل الى يوما انى آتيك . وفطن الحى فارصدوا له فلما رآنى سفرت عن وجهى علم ان ذلك لشر فلم يزد على التسليم والرجوع . فقال الحجاج لله درك ياليلى ! فهل رأيت منه شيأ تكرهينه ؟ فقالت لا ! والله الذى اساله ان يصلحك ، غير انه قال مرة قولاً ظننت انه قد خضع لبعض الامر فانشأت اقول :

« وذى حاجة قلنا له لا تبح بها فليس اليها ما حييت سبيل »

« لنا صاحب لا ينبغى ان نخونه وانت لاخرى صاحب وخليل . »

وادعاء ان عفاف النساء وطهارتهن وحفظهن لازواجهن فى صدر الاسلام متأصل فيهن ايام الجاهلية كما فعلت ليلى اقرب الى الذهن من استنباط سريان عادة المجوس فى القديم بدليل وقوعه فى بعض امم لم تجاور العرب ولم يبلغهم خبرها .

ومن علو همتهن قصة هند بنت عتبه : فانها قالت لابيها انى امرأة قد ملكت امرى فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على . قال لها : لك ذلك .

فقال لها ذات يوم انه قد خطبك رجلان من قومك . ولست مسميالك واحداً منهما حتى اصفه لك :

اما الاول ففي الشرف العميم والحسب الكريم تخالين به هوجاً من غفلته وذلك اسجاح من شيمته حسن الصحابة سريع الاجابة ان تابعته تبعك وان ملت كان معك تقضين عليه في ماله وتكتفين برأيك عن مشورته .

واما الآخر ففي الحسب الحسيب والراي الاريب بدر ارومته وعز عشيرته يؤدب اهله ولا يؤدبونه ان تبعوه اسهل عليهم وان جانبوه توعر عليهم شديد الغيره سريع الطيره صعب حجاب القبه ان حاج فغير منزور وان نوزع فغير مقهور . وقد بينت لك كليهما .

فقالت « اما الاول فسيد مضياع لكريمته موات لها فيما عسى ان تلين بعد ابائها وتضيع تحت خبائها ان جاءته بولد احمقت ، وان انجبت فمن خطأ ما انجبت . اطو ذكر هذا عني ولا تسمه لي . اما الآخر فبعل الحرة الكريمة اني لاخلاق هذا لوامقة واني لآخذة بآداب البعل مع لزومي قبتي وقلة تلفتي وان السليل بيني وبينه لحري ان يكون المدافع عن حريم عشيرته الذائد عن كتيبتها المحامي عن حقيقتها المثبت لارومتها غير مواكل ولا زميل عند صعصعة الحروب . »

قال : « ذلك ابو سفيان بن حرب » . قالت فزوجه ولا تلق القاء السلس ولا تسمه سوم الضرس . ثم استخر الله في السماء يخرلك في القضاء .

فهذا يدل على نظرها في العواقب حتى اختارت من يؤدبها على من يملكها قياده .

ومن علو هممهن قصة خليدة اخت الزبرقان بن بدر مع المخبل السعدي . وهو احد المعمرين عاش كثيراً في الجاهلية والاسلام وكان خطب خليدة الى الزبرقان . فرده وزوجها رجلاً من بني جشم بن عوف .

فهجاه المخبل وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الاهتم قبل ان يسلمو اوقبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم . ثم ان المخبل مر بعد حين بخليدة وقد اصابه كسر وهو لا يعرفها . فآوته وجبرت كسره فلما اراد الانصراف اعطته جارية تخدمه وزودته . فسألها عن اسمها فقالت له ما حاجتك اليه ؟ قال اريد ان امدحك . فقالت له اسمي رهو . فقال ما رأيت امرأة شريفة تسمى بهذا الاسم . (فان رهواً وصف في النساء غير حميد .) فقالت له انت سميتني به . فلما عرفها قال :

لقد ضل حلمي في خليدة ضلة   ساعتب نفسي بعدها واتوب »
« واشهد والمستغفر الله انني   كذبت عليها والهجاء كذوب »

وهذه آية في علو همة نساء الجاهلية واضحه .

ويشهد لذلك ايضاً قصة هزيلة الجديسية المتقدمة وقصة بنت خرشب التي تقدمت ايضاً .

ولهن من علو الهمة ما يبرهن على ذلك .

فمن ذلك قصة امرأة المحلق ممدوح الاعشى . وملخصها انه كان فقيراً ذا بنات كثيرة قد عنسن . فحسنت له امراته ان يتعرض لمدح الاعشى لتتزوج بناته . فنحر له ناقة لا يملك سواها وسقاه خمراً فمدحه الاعشى بقصيدته المشهورة اولها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   الى ضوء نار في يفاع تحرق .
تشب لمقرورين يصطليانها   وبات على النار الندى والمحلق .

فانشدها الاعشى بسوق عكاظ . فتسابق الناس اليهن فتزوجن عن آخرهن .

ومن علو هممهن قصة سعدى ام اوس بن حارثة وملخصها ان بشر ابن ابي خازم الشاعر المشهور هجا اوساً ونال من امه فاسره بعض العرب

فاشتراه اوس بمائتي بعير وعذبه . فعلمت امه فقالت ماتريد ان تصنع؟ فقال اريدان احرق هذا الذي شتمنا . فقالت قبح الله قوماً يسودونك اويقتبسون من رأيك . والله لكانما اخذت به . اماتعلم منزله في قومه . خل سبيله واكرمه . فانه لا يغسل عنك ماصنع غيره . ثم انه اكرمه واطلقه . فصار بشر يناقض هجوه بمدحه .

فهاتان القصتان كسائر الشواهد تدلان على علو همة نساء الجاهلية وعلى ان نساء الجاهلية لم يكن العوبة في ايدي رجالها بل كان لهن من الاستقلال والشأن مايرفعهن عن الابتذال وعن كونهن مباحات لاطماع الرجال .

ولم تزل العرب في الجاهلية تمدح نساءها بالحياء والعفة . فمن ذلك قول الشنفرى الازدي :

« اميمة لايخزى نثاها حليلها اذا ذكر النسوان عفت وجلت »
« اذا هو امسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسل اين ظلت »

نثاها ماينث عليها من افعالها يقول اذا ذكرت افعالها لم تسؤ حليلها لحسن مذهبها وعفتها . آب قرة عينه اي رجع الى ما يسره منها . لم يسل اين ظلت اي هي محجوبة لاتبرح بيتها .

قال الاصمعي هذان البيتان احسن ماقيل في خفر النساء وعفتهن .

ومن ذلك ابيات ابي قيس بن الاسلت :

« ويكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن اتيانهن فتعذر »
« وليس بها ان تستهين بجارة ولكنها من ذاك تحيا وتحصر »
« وان هي لم تبرز لهن اتينها نواعم بيض مشيهن التأطر »

وكما تذم العرب بعدم العفاف تمدح بالعفاف . قالت خرنق بنت هفان (اخت طرفه بن العبد لامه) ترثي قومها :

« لا يبعدن قومي الذين هم سم العداة وآفة الجزر »
« النازلين بكل معترك والطيبون معاقد الازر »

« قوم اذا ركبوا سمعت لهم   لغطاً من التأبيه والزجر »
« في غير ما فحش يجاء به   بمنائح المهرات والمهر »
« ان يشربوا يهبوا وان يزدوا   يتوا عظوا عن منطق الهجر »
« والخالطين نحيتهم بنضارهم   وذوي الغنا منهم بذي الفقر »

وصفت قومها بدوام الغلبة على الاعداء في قولها « سم العداة » وبغاية الجود والكرم في قولها « وآفة الجزر » وبفرط الشجاعة والبسالة في قولها « النازلين بكل معترك » وبكمال العفاف والطهارة عن الفاحشة والفجور والريبة في قولها « والطيبون معاقد الازر » وبنزاهة اللسان عن الفحش وقبيح الكلام في قولها « قوم اذا ركبوا سمعت لهم لغطاً من التابيه والزجر في غير ما فحش » والتابيه الدعوة والنداء . تعني انهم يجتنبون عبث الكلام ورديئه فاذا ركبوا فلا تسمع لهم الا اصواتاً في زجر الخيل ونداأها وذلك في غير فحش من السنتهم فلهم رفق بالحيوانات ايضاً . ثم وصفتهم بالكرم ونزاهة اللسان عن رديء القول في قولها « ان يشربوا يهبوا وان يزدوا يتوا عظوا عن منطق الهجر » تعني ان قومها اذا شربوا يجودون ويهبون الاموال وان زادوا في الشرب فكان بعضهم يعظ البعض عن قبيح الكلام . والنحيت الخامل الساقط الذكر . والنضار الخالص النسب العزيز الشهير . تقول ان قومها خلطوا خاملهم برفيعهم وفقيرهم بغنيهم فاكتسب كل منهم الغنى والخصال الحميدة فليس فيهم خامل ولا فقير .

يكفينا في الرد على هذا المتحامل ما اشتهر عند جميع الامم من انفة العرب عن من لا يرونه كفواً . من ذلك قصة النعمان بن المنذر : فان كسرى ملكه على العرب . فقيل له ان النعمان عنده بنات واخوات في غاية الحسن . فبعث اليه زيد بن عدي بن زيد فقال له ان كسرى قد احتاج الى نساء لنفسه ولولده واراد كرامتك بصهره فبعث اليك . فقال

النعمان « اما فى مها السواد وعين فارس مايبلغ به كسرى حاجته ؟! »
فقال له زيد انما اراد كسرى ان يكرمك . ولو علم ان هذا يشق عليك
لم يكتب اليك . ثم ان النعمان بلغه غضب كسرى فحمل سلاحه وصار
يستجير بقبائل العرب فلم يجره احد وقالوا لا طاقة لنا بكسرى . فذهب
النعمان الى كسرى فالقاه تحت ارجل الفيلة حتى مات ولم يرض به كفواً
مع انه هو سبب رفعته .

ومن ذلك قصة مهلهل بن ربيعة : فانه انفرد عن قومه بعد انقضاء
حرب البسوس ونزل فى بنى جنب (حى من مذحج) فخطبوا اليه ابنته .
فقال « انى طريد فيكم فمتى زوجتكم قالوا اقتسروه . » ــ فاجبروه
على تزويجها ، وساقوا اليه فى صداقها ادماً . فقال :

انكحها فقدها الاراقم فى جنب وكان الحباء من ادمِ
لو بابانين جاء يخطبها ضرج ما انف خاطب بدمِ
هان على تغلب الذى لقيت اخت بنى المالكين من جشمِ
ليسوا باكفائنا الكرام ولا يغنون من عيلة ولا عدمِ

اسند الانكاح الى فقد الاراقم وهم بطون من تغلب . ولو وجد
منهم احداً لما انكحها فى جنب وقال ان هذا الانكاح مع عدم الكفاءة
وخساسة المهر لم يكن عن رضاه بل هو اكره على ذلك . يدل عليه قوله لو بابانين
جاء يخطبها يعنى لو خطبها جنبى فى ابانين (وهو على صيغة التثنيه جبلان)
لضرج وجهه بالدم . اى لاهانه غاية الاهانة .

ومن ذلك قصة عدى بن نصر اللخمى . وكان جذيمة الابرش ولاه
مجلسه والقيام على رأسه . فعشقته اخته رقاش فقالت له اذا سقيت القوم
فامزج لهم وعرق للملك (اى امزج له قليلاً كالعرق) فاذا اخذت الخمر
منه فاخطبنى اليه فانه يزوجك فاشهد القوم ان فعل . ففعل الغلام .
وخطبها فزوجه واشهد عليه وانصرف اليها فعرفها الخبر فقالت عرس

باهلك . فلما اصبح غدا متضمخاً بالخلوق . فقال له جذيمة ماهذه الآثار ياعدى ؟ قال آثار عرس . قال له جذيمة واى عرس؟ قال عرس رقاش. فنخر واكب على الارض . ورفع عدى جرا ميزه فاسرع جذيمة فى طلبه فلم يجده وقيل بل قتله ، و بعث اليها :

حدثيني وانت لاتكذبيني ابحر زنيت ام بهجين
ام بعبد فانت اهل لعبد ام بدون فانت اهل لدون

فاجابته رقاش :

انت زوجتى وما كنت ادرى واتانى النساء للتزيين
ذاك من شربك المدامة صرفاً وتماديك فى الصبا والمجون

فنقلها جذيمة اليه وحضنها فى قصره . فاشتملت على حمل وولدت غلاماً فسمته عمراً فلك بعد خاله . وهو الذى خطفه الجن وهو صاحب مثل « شب عمرو عن الطوق »

ودخل عقيل بن علفة يوماً على عثمان بن حيان وهو امير المدينة فقال له عثمان زوجنى بعض بناتك؟ فقال « ابكرة من ابلى تعنى ؟ » فقال له عثمان « امجنون انت ؟ » قال عقيل اى شيء قلت لى ؟ قال عثمان قلت لك زوجنى ابنتك ! قال ان كنت تريد بكرة من ابلى فنعم . فامر به فوجئت عنقه . فخرج وهو يقول :

لحى الله دهراً ذعذع المال كله وسود ابناء الاماء العوارك !

وعقيل هذا وان كان فى صدر الاسلام فاخلاقه لم تزل جاهلية . وخطب اليه ابراهيم بن هشام القرشى وهو خال هشام بن عبدالملك ووالى المدينة وكان ابيض شديد البياض فرده عقيل وقال :

رددت صحيفة القرشى لما ابت اعراقه الا احمراراً

وبلغ بالعرب الرغبة عن غير الاكفاء وخوف العار الى تمنى الموت لبناتهم . قال الهيثم ان الوأد كان مستعملاً فى قبائل العرب

قاطبة وكان يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الاسلام وقد قل الا في تميم . وقيل كان الوأد في تميم وقيس وبكر وهوازن واسد . وكان من لايرى الوأد يتمنى لابنته الموت خوفاً من الفضيحة بعده اومن الوقوع في يد غير كفء .

ومن ذلك قصة المثنى بن معروف الطائي فانه نزل برجل من فزارة يقال له ابو جبر فسمعه يقول واللّه اني وددت ان ابيت الليلة خالياً بابنة عبدالملك بن مروان فقال له الطائي احلالاً ام حراماً؟ فقال مابالي ؛ فوثب عليه المثنى فضرب رأسه برحالة ثم انتقل وهو يقول :

ابلغ امير المؤمنين رسالة   على النأى اني قد وترت اباجبر
كسرت على اليافوخ منه رحالة   لنصر امير المؤمنين وما يدرى
على غير شيء غير اني سمعته   بني بنساء المسلمين بلا مهر

ومن ذلك قصة عقيل بن علفة الغطفاني فانه خطب عنده ابن اخيه ابنته وكان هجيناً وله مال كثير فقال :

لعمرى لئن زوجت من اجل ماله   هجيناً لقد حبت الى الدراهم
ابى لى ان اعطى الدناءة انني   امد عناناً لم تخنه الشكائم

وكان لعقيل هذا جار جهني خطب اليه ابنته فغضب فاخذه وكتفه ودهن استه بشحم اوزيت فادناه من قرية النمل فاكل خصيتيه حتى ورم جسده .

وقال اكثم بن صيفي : يابني تميم لايغلبنكم جمال النساء على صراحة النسب . فان المناكح الكريمة مدرجة الشرف .

وقال بكير الاسدى :

واول خبث المرء خبث ترابه   واول لؤم المرء لؤم المناكح

ومن رغبتهم بناتهم عن غير الاكفاء قصة يذكر بن عنزة بن اسد بن ربيعة . وهو احد القارظين اللذين يضرب بهما المثل فيقال « حتى يؤوب القارظان . » اى حتى يكون مالا يكون . وملخص القصة : ان

رجلاً اسمه خزيمة بن فهد خطب اليه ابنته فلم يزوجها. ثم خرجا يطلبان القرظ (وهو ورق تدبغ به الجلود) ومرا بقليب فاستقيا فسقطت الدلو. فنزل يذكر ليخرجها. فلما صار فى البئر منعه الحبل وقال زوجنى فاطمة. فقال اما على هذه الحالة اقتساراً فلا افعل ولكن اخرجنى حتى ازوجك. فامتنع وجعل يسأله فيأبى حتى هلك فيها. فهذا يدل على ان القوم كانوا فى غاية اعزازلبناتهم. لا كما قال المعترض من ابتذالهم لهن. والقارظ الثانى رجل من النمر ابن قاسط. خرج يبغى قرظاً فابعد فنهشته حية فقتلته. فضرب المثل برجوعه فيما لا يكون.

واحتجاجه على قدم الفساد المذكور فى العرب بقصة ياقوت الحموى، وهى مسامرة اهل مرباط ومبادلتهم، لايخفى عدم ظهور وجهه لان اهل مرباط ليسوا من العرب فى الاصل وانما نزل فيهم بعض متاخرى العرب فبانقراض جيل بعد جيل سرت العادة فى ذراريهم من اهل البلد.

واما حكاية ابن بطوطه التى شاهدها عند امير عمان فانها دليل على ان اهل عمان باقون على انفة العرب. لان البنت التى ساق حكايتها لو استطاعت ان تبلغ غرضها فى بيت ابيها ما احتمت بذلك الامير الظالم. يدل على ذلك قوله لا يقدر على قتلها لحماية الامير لها. وفيه دليل على ان الامير غير عربى الاصل لان العربى يغار على غير حرمه. يدل على ذلك قصة السليك بن السلكة فانه مر بامرأة فى بيت وحدها فاغتصبها فلما علم بذلك رجل اسمه انس تبعه فقتله وابى ان يعطى ديته فقال فى ذلك:

انى وقتلى سليكاً ثم اعقله كالثور يضرب لما عافت البقر
غضبت للمرء اذ نيكت حليلته واذ يشد على وجعائها الثفر

قوله ثم اعقله بالنصب على تقدير ان المصدرية عطفا على وقتلى. ولما عافت البقر اى لما كرهت البقر شرب الماء. والمعنى ان البقر اذا امتنعت من شروعها فى الماء لا تضرب لانها ذات لبن. وانما يضرب

الثور لتفزع هي فتشرب . يقول ان قتل سليك كان بحق فالعقل يكون ظلماً كضرب الثور عند امتناع البقر .

قال المعترض « ان العرب كانوا يستبضعون لبناتهم باقل شيء . » وهذا غير صحيح لان من مشهور كلام العرب « ومن خطب الحسناء لم يغله المهر . » ولم تزل العرب تشتط في المهر وتغالي حتى جاء الاسلام فامر بالتخفيف . اما اهل الامصار فامتثلوا . واما اهل البادية الذين لم يتمكنوا من خلع العوائد كلها فلم يفعلوا لان الامر كان على طريق الندب . يشهد لذلك قصة عروة بن حزام العذري فانه خطب بنت عمه عفراء فاشتط عليه عمه في المهر فقال عروة :

« يكلفني عمي ثمانين ناقة ومالي والرحمن غير ثمان »

وقال عمرو بن ابي علقمة المري :

اني وان حب الى المهر الف وعبدان وذود عشر
احب اصهاري الى القبر

ولما زوج النعمان بن بشير الانصاري يحيى بن ابي حفصه ابنته على عشرين الف درهم قال قائل يعيره :

لعمري لقد جللت نفسك خزية . وخالفت فعل الاكثرين الاكارم
ولو كان جداك اللذ ان تتابعا ببدر لما راما صنيع الالائم

وقال ابو اسحاق بن خلف :

لولا اميمة لم اجزع من العدم ولم اجب في الفيا في حندس الظلم
تهوى حياتي واهوى موتها شغفاً والموت اكرم نزال على الحرم .

وقال ابن المعتز :

وبكر قلت موتي قبل بعل وان اثرى وعد من الصميم
امزج باللئام دمي ولحمي فما عذري الى النسب الكريم
وموتى امر مؤنث من الموت

ومن ذلك قصة ابن ملجم قاتل علي بن ابي طالب: فانه خطب امرأة من الخوارج فقالت لا اقنع منك الا بصداق اسميه لك: وهو ثلاثة آلاف درهم وعبد وامة وان تقتل عليا. فقال لها « لك ما سألت »

وقال في ذلك:

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علي بالحسام المصمم
فلا مهر اغلى من علي وان علا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

وقال جرير يعير الفرزدق بمهر اخته جعثن ويفخر عليه بكثرة مهر نساء قومه:

هلا طلبت بعقر جعثن منقراً ومجرها وتركت ذكر الابلق
سبعون والوصفاء مهر بناتنا اذ مهر جعثن مثل حزر البندق

العقردية بضع المرأة اذا غصبت على نفسها. وجعثن بكسر الجيم والثاء اسم اخت الفرزدق. ومنقر بكسر الميم وفتح القاف اراد به اولاد الاشد المنقري. وكان عمران بن مرة المنقري اسر جعثن يوم السيدان. ومجرها اي جرهم اياها. وقد اعترف جرير بانه افترى عليها في قذفه هذا. والابلق زوج بنت جرير. والحزر التقدير. والبندق الذي يرمى به كنى بذلك عن القبيح.

وقال رجل في امرأة زوجت من غير كفوء:

لقد فرح الواشون ان نال ثعلب شبيهة ظبي مقلتاها وجيدها
اضر بها فقد الولي فاصبحت بكف لئيم الوالدين يقودها.

وتفاخر العرب في الجاهلية بانسابهم معلوم. ولا يرضى كريم الطرفين منهم بموازاته بمن ليس كذلك.

حكي ان قتيبة بن مسلم الباهلي مازح اعرابياً فقال ايسرك ان تكون باهليا؟ فقال لا والله! قال فتكون باهليا خليفة؟ قال لا والله، ولو ان لي ماطلعت عليه الشمس.؟ قال افيسرك ان تكون باهلياً وتكون في الجنة؟ فاطرق ثم قال بشرط ان لا يعلم اهل الجنة اني باهلي.

وقال اعرابي :

سل الله ذا المن من فضله ولا تسألن ابا وائله
فما سأل الله عبد له فخاب ولو كان من باهله .

وحج ابو جزء ومعه قوم من خاصته فجلسوا في المسجد الحرام الى قوم من بني الحارث بن كعب . فراى بنو سعد اعظام قوم ابي جزء اياه فقال قائل منهم امن بيت الخليفة انت ؟ قال لا ولكن رجل من العرب . قال ممن الرجل ؟ قال رجل من مضر . قال اعرض ثوب الملبس ! من ايها عافاك الله ؟ قال رجل من قيس . قال اين يراد بك . صر الى فصيلتك التي تؤويك ! قال رجل من بني سعد بن قيس . قال اللهم غفراً ! من ايها عافاك الله ؟ قال رجل من بني يعصر . قال من ايها ؟ قال رجل من باهلة . قال قم عنا ! فاقبل بعض اصحابه الى الحارثي فقال اتعرف هذا؟ قال ذكرانه باهلي . فقال هذا امير ابن امير حتى عدد خمسة وسماهم كلهم . فقال الحارث الامير اعظم ام الخليفة ؟ فقال بل الخليفة . قال افالخليفة اعظم ام النبي ؟ قال بل النبي . قال « والله لو عددت له في النبوة اضعاف ماعددت له في الامارة ثم كان باهلياً ما كان الله ليعبابه شيأ ! » فكادت نفس ابي جزء تخرج . فقال صاحبه انهض بنا فان هولاء اسوأ الناس آدابا .

وكانوا اذا شرف احدهم بنفسه سموه عصامياً واذا شرف بآبائه سموه عظامياً . وفي المثل « كن عصامياً ولا تكن عظامياً » اى افتخر بنفسك لا بعظام آبائك البالية . وعصام هذا هو عصام بن شهبر الباهلي حاجب النعمان . ومن شعره :

نفس عصام سودت عصاماً وعلمته الكر والاقداما
وجعلته ملكاً هماما .

ويقال له عصام الخارجي . وانما سمته العرب خارجياً لانه خرج من غير اولية كانت له .

ويحكى ان الحجاج ذكر عنده رجل بالجهل فاراد اختباره فقال اعصامي امعظامي ؟ اراد « اشرفت بنفسك ام بابائك الذين صاروا عظاماً باليه ؟ » فقال الرجل اناعصامي وعظامي . فقال الحجاج هذا افضل الناس . فقضى حوائجه ومكث عنده ثم فتشه فوجده اجهل الناس . فقال لتصدقني اولاقتلنك . كيف اجبتني بمااجبتني حين سألتك عماسألتك ؟ قال لم اعلم اعصامي خيرام عظامي فخشيت ان اقول احدهم فقلت كليهما . فان ضرني احدهما نفعني الآخر فقال الحجاج عند ذلك « المقادير تصير العى خطيباً . »

واولاد الجواري انقص عندهم من اولاد الحرائر . قال الشاعر

ان اولاد السراري كثرت يارب فينا
رب ادخلني بلاداً لااري فيها هجيناً

وكتب محمد بن عبدالله بن حسن الى المنصور الخليفة العباسي في مكتوب بعث به اليه واعلم اني لست من اولاد الطلقاء ولا اولاد اللعناء ولا اعرقت في الاماء ولا حضنتني امهات الاولاد .

ومع ماهم مشهورون به من الفخر بالانساب كان الرجل لا يشرف عندهم ولا يكمل الا اذا ضم الى نسبه شرف نفسه .

قال عامر بن الطفيل :

واني وان كنت ابن سيدعامر وفارسها المشهور في كل موكب
فماسودتني عامر عن وراثة ابى الله ان اسمو بام ولااب

وقال الآخر فى مثل هذا :

وما ينفع الاصل من هاشم　　اذا كانت النفس من باهلة

وقال الآخر يهجو شقيقه :

ابوك ابى وانت اخى ولكن　　تفاضلت الطبائع والظروف

وامك حين تنسب ام صدق　　ولكن ابنها طبع سخيف

وقد اجاد المتنبي

وآنف من اخى لابى وامى　　اذا ما لم اجده من الكرام

ارى الاجداد تغلبها جميعا　　على الاولاد اخلاق اللئام

ولست بقانع من كل فضل　　بان اعزى الى جد همام

وقال عنترة بن شداد العبسى ، وكان بنو عبس انهزموا فثبت وقاتل دون النساء فرد العدو وقال قيس بن زهير ما حمى النساء الا ابن السوداء

انى امرؤ من خير عبس منصباً　　شطرى واحمى سائرى بالمنصل

واذا الكتيبة احجمت وتلاحظت　　الفيت خيراً من معم مخول

فاقر على نفسه بانه ناقص النصف وجعل شجاعته تحمى نصفه الباقى .

ومن افتخارهم بالآباء دون الامهات قول عبدالله بن عبدالمطلب والد النبي صلى الله عليه وسلم :

لقد علم السارون فى كل بلدة　　بان لنا فضلاً على سادة الارض

وان ابى ذو المجد والسودد الذى　　يشار له ما بين نشز الى خفض

وجدى وآباء له اثلوا العلى　　قديماً بطيب العرق والنسب المحض

فانه رضى الله عنه مع شرف اخواله لم يذكرهم .

ومن ذلك قول القائل :

اذا مات منهم ميت سرق ابنه　　ومن عضة ماينبتن شكيرها

يريد ان الابن منهم يشبه اباه . فمن راى هذا ظنه هذا فكان الابن مسروق . ولم يقل انه يشبه خاله او ابا امه .

ومن كلامهم من يمن الولد ان يشبه اباه .

وربما افتخروا بالامهات لاجل معنى خفي . من ذلك قول لبيد بن ربيعة العامري صاحب المعلقة :

« نحن بنوام البنين الاربعه ونحن خير عامر بن صعصعه »
« المطعمون الجفنة المدعده والضاربون الهام تحت الخيضعه »
« مهلا ابيت اللعن لا تأكل معه ان استه من برص ملمعه »

والنكتة في انتساب لبيد الى ام البنين واسمها ليلى التنبيه على انهم اشقاء .

وبنوام البنين خمسة لاار بعة . وهم : ١) عامر بن مالك ملاعب الاسنة ٢) وطفيل بن مالك فارس قرزل . وهو ابوعامر المشهور وقرزل فرسه ، ٣) وربيعة بن مالك وهو ابو لبيد . وهو ربيع المقترين، ٤) ومعاوية بن مالك معود الحكماء . ٥) وعبيدة الوضاح .

وانما قال الاربعة لان اباه وهو احد الخمسة كان قدمات قبل ذلك . وقيل انما قال ذلك لاجل القوافي . فيقال لايجوز لشاعر ان يلحن للقوافي فكيف ان يكذب .

حل غريب الابيات : الجفنة القصعة الكبيرة ومنه قوله تعالى «وجفان كالجوابي» وهي مخصوصة باوعية الطعام . والمدعدة المملوءة . والخيضعة ، بخاء وضاد منقوطتين بينهما ياء ساكنة زائدة ، اصوات وقع السيوف ، والبيضة على الرأس ، والغبار .

زعم المتحامل المذكور ان النساء في الجاهلية اعز من الرجال . ويرد ذلك ماتقدم . ولو كن اعز من الرجال لم تكن الضرائر موجودة في الجاهلية مع ان بعض اشراف العرب كانوا يجمعون تسعاً وعشراً . والبغض بين الضرائر معروف قديماً وحديثاً . قالت بنت مرة بن عاهان بن الحصين لما قتلته باهلة :

انا وباهلة بن اعصر بيننا داء الضرائر بغضة وتقاف
من تثقفن منهم فليس بآئب ابداً وقتل بني قتيبة شاف
ذهبت قتيبة في اللقاء بفارس لاطائش رعش ولا وقاف

باهلة قبيلة سموا بامهم . وهم تسعة ابوهم مالك بن اعصر . وليست باهلة امالغير اثنين منهم . وانما حضنت الجميع فغلبت عليهم . والضرائر جمع ضرة ، وهذا الجمع نادر لا يكاد يوجد له نظير الا مثل حرائر في جمع حرة وكنائن في كنة . وداء الضرائر هو التباغض والتضارب . وهو معروف . فيكون قولها بغضة وتقاف تفسيراً للداء . والتقافي تفاعل من قفيته اقفيه قفيا اذا ضرب قفاه . وروى نقاف بكسر النون في اوله . وهو مصدر ناقفه والمناقفة المضاربة بالسيوف على الرؤس وعلى هذا يكون بغضة بالجر بدلاً من الضرائر . من ثقفن صيغة المتكلم مع الغير . يقال ثقفت الرجل في الحرب ادركته . تقول من نظفر به من باهلة نقتله ولا ندعه يرجع الى اهله .

قال حندة الطهوى .

لقد خشيت ان يقوم قابري ولم تمارسك من الضرائر
ذات شذاة جمة الصراصر حتى اذا جرس كل طائر
قامت تعنظى بك سمع الحاضر تصر اصرار العقاب الكاسر

يعني بذلك امراته يقول لقد خشيت ان ادفن ولم اتزوج امرأة تكون لك ضرة . والشذاة الحدة والخصومة . والصرا صرجمع صرصرة وهي الصوت الدقيق . يريد كثرة كلامها وشدة خصومتها . واراد بقوله حتى اذا جرس كل طائر ابتداء النهار وانتشار الضوء . وفي ذلك الوقت تسرح الطير لطلب ارزاقها . يريد انها تباكرها بالسباب . والحاضر جماعة الناس . تعنظى بك اى تسمعها وتذكرها بالخنى ليسمع الحى .

وقال حميد بن ثور :

واقسم لولا ان حدباً تتابعت على ولم ابرح بدين مطردا
لزاحمت مكسالاً كان ثيابها تجن غزالاً بالخميلة اغيدا
اذا انت باكرت المنيئة باكرت مداكاً لها من زعفران واثمدا

يطالب زوجته بمهر، فاقسم لولا ان جدبا (وهي السنون المجدبة واحدتها جدباء) تتابعت [illegible] ولولا انه استدان وطالبه الغرماء وطردوه [illegible] لما [illegible] امرأة ثقيلة الارداف الناعمة الجسم [illegible] تستغرق الا بريدان [illegible] والاغيد المثنى . ثم قال [illegible] هي الطيب والاكتحال [illegible] الطيب . ولو علم حميد شيأ افضل [illegible]

[illegible] عرب الجاهلية ثبت ان النساء [illegible] عليهم .

[illegible] فهذا مردود عليه [illegible] على ذلك قول قيس [illegible]

[illegible] الى حياءها

[illegible] الى النعمان ابنته بمال [illegible] تزوجها بعده فقال :

[illegible] حوتها حقا

[illegible] الاستعمال افصح .

وقال عنترة [illegible]

اغشى [illegible] في الجيش لا اغشاها

[illegible] ماواها

[illegible] . واذا غاب [illegible] النظر عن جارته [illegible]

وقول اعشى باهلة يرثي المنتشر بن وهب :

لا يهتك الستر عن انثى يطالعها   ولا يشد الى جارته النظر

وهذا منتهى الغزلان اهتضام الجار عندالعرب دليل على ذل المجير .

ولم تزل نساء العرب تانف من ذلك . ومنه قصة امرأة مرت على سفهاء من بني نمير في صدر الاسلام . فنظروا اليها وقالوا كلمة تخل بالادب فقالت يا بني نمير ما امتثلتم قول الله تعالى « قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم . » (سورة النور ـ ٣٠) ولا امتثلتم قول جرير :

« فغض الطرف انك من نمير   فلا كعباً بلغت ولا كلابا »

وقالت الخنساء في وصف اخيها صخر :

لم تره جارة يمشي بساحتها   لريبةٍ حين يخلي بيته الجار

وقالت ايضاً .

ولا يقوم الى ابن العم يشتمه   ولا يدب الى الجارات تخويدا

ومما رمى به صاحب الكتاب المذكور العرب ان نساءهم كن مشتركاً فيهن وانهن كن المعتمد .

وهذا غلط منه او مغالطة اذ لا تجد عربياً يمدح آخر الا شبهه بآبائه دون امهاته . وكانوا اكثر ما يذكرون الامهات عند الهجاء لان الطعن فيهن يمض الشخص اكثر من الطعن في ابيه . واكثر ما يفتخرون به الآباء والاجداد . نعم كان الاكمل عندهم كرم الابوين وكانوا يسمون الموصوف به طرفاً (بكسر الطاء) فان كان ابوه شريفاً وامه ليست كذلك سموه هجيناً وان كان بالعكس سموه مقرفاً (اسم فاعل من باب الافعال) وسموه ايضاً مذرعاً .

قال الشاعر :

اذا باهلي تحته حنظلية   له ولد منهما فذاك المذرع

باهلة قبيلة من قيس عيلان . اكتسبت الدناءة بافعالها لا من جهة النسب . وبنو حنظلة اكرم قبيلة في تميم . والمذرع (بالذال والعين

المهملة. اسم مفعول من باب التفعيل.) هو الذى امه اشرف من ابيه. قال ابن هشام سمي مذرعاً للرقمتين فى ذراع البغل وانما صارتا فيه من قبل الحمار.

وكان الهجين عند العرب دون الصريح الا اذا برع فى الكرم والشجاعة فانه يوازيه. قال خفاف بن ندبة:

كلانا يسوده قومه على ذلك النسب المظلم

يعنى انه هو والعباس بن مرداس سودهما قومهما مع انهما ابنا جاريتين.

قال المعترض «ان العرب اخس من الكلاب.» ومعلوم ان الخساسة الدناءة. ولنا ان نقول ان العرب اشرف الامم بالاجماع لان خصال الحمد مجتمعة فيهم:

افضل المحامد عزة النفس. وللعرب فيها ماليس لغيرهم. يشهد لذلك ماثور اخبارهم. انظر الى قصة حذيفة بن بدر واخيه يوم الهباءة (يوم من ايام الجاهلية) وكانا اغارا على بنى عبس فاستنقعا فى الغدير فلم يفجاهما غير قيس بن زهير عدوهم الالد. فقال احدهما قولاً يعلم منه الخضوع فضربه الآخر وقال دع عنك ماثور القول اى اجتنب قولاً يؤثر عنك ويكون عاراً وعيباً على عقبك.

ومنها قصة قيس بن زهير. فانه بعد انقضاء حرب داحس والغبراء خرج هو وصاحب له من بنى اسد عليهما المسوح يسيحان فى الارض ويتقوتان مما تنبت، الى ان دفعا فى ليلة باردة الى اخبية لقوم وقد اشتد بهما الجوع، فوجدا رائحة شواء فسعيا يريدانه فلما قاربا ادركت قيساً شهامة النفس والانفة فرجع وقال لصاحبه دونك وما تريد فانى لبثاً على هذه الاجارع اترقب داهية القرون الماضية (يعنى الهلاك). فمضى صاحبه ورجع من الغد فوجده قد لجأ الى شجرة باسفل واد فنال من ورقها شيأً ثم مات.

ومن ذلك قصة الحارث بن ظالم فانه وفد على الملك فوجد عنده خالد بن جعفر بن كلاب فعيره خالد في مجلس الملك بما فعل بقومه وكان خالد وحارث يأكلان التمر فجعل التمر يتساقط من يد حارث بمحضر الملك. ثم ان حارثاً فتك به في جوار الملك فاغار الملك على جارات للحارث فاغتال الحارث ابنه واستنقذ جاراته مع مالهن.

ومن افضلها الكرم. وللعرب فيه ما ليس لغيرهم. هم اقرى الناس للضيف. يقر بذلك لهم كل من يعرفهم. كانوا يوقدون النار للضيف ليهتدي بها. على اليفاع (بالفتح وهو الموضع العالي) لتكون اشهر. وربما اوقدوها بالمندلي الرطب (وهو عطر ينسب الى مندل. بلاد من بلاد الهند) ونحوه مما يتبخر به ليهتدي اليها العميان. وقريش اهل ذلك. فاول من اوقد النار بالمزدلفة، حتى يراها من دفع من عرفة [illegible] بن كلاب. وسمي هاشم هاشماً لانه كان يهشم الثريد للحاج. وكان عبدالله بن جدعان القرشي التيمي ينصب موائده بالابطح يأكل منها الناس. وفيه يقول امية بن ابي الصلت:

له داع بمكة مشمعل — وآخر فوق دارته ينادي
الى ردح من الشيزى ملاء — لباب البر يلبك بالشهاد

مشمعل مرتفع. وردح جمع رداح جفنة عظيمة. والشيزى خشب اسود تتخذ منه الجفان.

ومن قريش ايضاً ازواد الركب. وهم مسافر بن ابي عمرو بن امية، وزمعة بن الاسود بن المطلب بن عبدالعزى والمغيرة بن عبدالله ابن عمر بن مخزوم. وانما قيل لهم ازواد الركب لانهم كانوا اذا سافروا لم يتزود معهم احد.

وكان حاتم اذا اشتد البرد وكلب الشتاء امر غلامه فاوقد نارا في يفاع من الارض لينظر اليها من اضل الطريق ليلاً ليهتدي اليها. وكان يقول عند ذلك:

اوقد فان الليل ليل قر والريح ياموقد ريح صر

عل يرى نارك من يمر ان جلبت ضيفاً فانت حر

وكان ذو الاعواد وهو جد اكثم بن صيفي من بني اسيد بن عمرو ابن تميم معمراً . وكان من اعز اهل زمانه . فاتخذت له قبة على سرير فلم يكن خائف يأتيها الا امن ، ولا ذليل الا عز ، ولا جائع الا شبع ؛ واياه يعني الاسود بن يعفر بقوله :

ولقد علمت سوى الذي نبأتني ان السبيل سبيل ذي الاعواد .

ومن ذلك قصة كعب بن مامة الايادي . فانه آثر رفيقه بنصيب من الماء ومات هو عطشا .

ومن ذلك رجل من طيئ حدث عنه رجل من الاعراب . قال نزلت برجل من طيئ فنحر لي ناقة فاكلت منها فلما كان الغد نحر اخرى . فقلت ان عندك من اللحم ما يغني ويكفي . فقال اني والله لا اطعم ضيفي الا لحماً غريضاً . قال وفعل ذلك في اليوم الثالث . وفي كل ذلك آكل شيأ ويأكل الباقي اكل جماعة . ثم نوتي باللبن فاشرب شيا ويشرب عامة الوطب . فلما كان اليوم الثالث ارتقبت غفلته فاضطجع فلما امتلأ نوما استقت ذودا من ابله فاقبلته الفج . فانتبه واختصر على الطريق حتى وقف لي في مضيق دونه فالقم وتره فوق سهمه ثم نادى بي «لتطب نفسك عنها!» قلت ارني آية فقال انظر الى ذلك الضب فاني واضع سهمي في مغرز ذنبه فرماه فازرز ذنبه . فقلت زدني . فقال انظر الى اعلى فقاره . فرماه فاثبت سهمه في الموضع . ثم قال : « الثالثة والله في كبدك ! » فقلت شأنك بابلك . فقال « كلا ، حتى تسوقها الى حيث كانت . » قال فلما انتهيت بها قال « فكرت فيك فلم اجد لي عندك ترة تطالبني بها . وما احسب الذي حملك على اخذ ابلي الا الحاجة . » قال قلت هو والله ذاك . قال « فاعمد الى عشرين من خيارها فخذها . » فقلت اذاً والله لا افعل حتى تسمع مدحك : « والله ما رأيت رجلاً اكرم ضيافة ،

ولا اهدى سبيلاً ، ولا ارمى كفاً ولا اوسع صدرا ولا ارغب جوفاً ولا اكرم عفواً منك . » قال فاستحيا فصرف وجهه عنى ثم قال انصرف بالقطيع مباركاً لك فيه .

وهذا باب انفردت به العرب . حتى ان من اشتهرت عندهم باللؤم لا يقارب فيه كريم غيرهم . فمن ذلك ان امرأة مر بها رجل فقال «هل من رسل يباع ؟ » فقالت له « انك للئيم اومن قوم لئام ! وهل يبيع الرسل كريم ؟! »

وكان احيحة بن الجلاح مشهورا عند العرب باللؤم . ولما مر تبع الحميرى ، وهو ابو كرب آخر التبابعة ملوك حمير ، بالمدينة خلف ابنه بها ومضى حتى قدم العراق فقتل ابنه بالمدينة غيلة فحاصر احيحة فى اطمه واسمه الضحيان ثلاثة ايام فكان يقاتلهم فى النهار يرميهم بالنبل والحجارة ويرمى اليهم فى الليل بالتمر . فقال تبع اصحابه بعثنا الى رجل يقاتلنا بالنهار ويضيفنا فى الليل

ومن اخس العرب باهلة . ومنهم المنتشر المشهور وكان ينحر الكوم للاضياف . وفيه يقول الاعشى :

لا تنكر البازل الكوماء ضربته   بالمشر فى اذا ما اجلوذ السفر

وتفزع الشول منه حين تبصره   حتى تقطع فى اعناقها الجرر

والجرة مايخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه . وانقطاع الجرر اذا رات السيف يكون فزعا من العقر .

ومن الخصال الحميدة العفو عند القدرة . وللعرب فى ذلك ماليس لغيرهم . فمن ذلك قصة دريد بن الصمة مع ربيعة بن مكدم . فان الاول خرج فى كتيبة فراى الثانى يقود بظعينة فبعث اليه احد اصحابه وقال له اقتله وائتنى بالظعينة . فقتله ربيعة فبعث آخر فقتله حتى قتل الثالث فخرج اليه بنفسه . فوجده قد انكسر رمحه وبقى اعزل فقال له ايها

الفارس ان مثلك لا يقتل واني لا ارى معك رمحاً. فخذ رمحي واني مثبط عنك القوم. فقال لهم قتل اصحابكم وانتزع رمحي فلا مطمع لكم فيه وقال:

ماان رأيت ولا سمعت بمثله   حامي الظعينة فارساً لم يقتل
ياليت شعري من ابوه وامه   ياصاح من يك مثله لا يجهل

ومنها الوفاء بالعهد. ولم يتصف بذلك غير العرب في القديم. حتى انهم كانوا اذا غدر منهم احد رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليعرفوه الناس فيفتضح. وفي ذلك يقول الحادرة:

اسُمَيَّ ويحك هل سمعت بغدرة   رفع اللواء لنا بها في مجمع

ومن ذلك قصة الحارث بن عباد: فانه اعتزل حرب البسوس وقال لا ناقة لي فيها ولا جمل. وبعث ابنه بجيراً الى مهلهل يخبره بذلك فقتله فقال الحارث لما بلغه الخبر نعم القتيل قتيل اصلح بين ابني وائل. فقيل له ان مهلهلاً لما قتله قال له « بوء بشسع نعل كليب! » (يقال اباءت فلانا بفلان فباء به اذا قتلته به. وهذا لا يكاد يستعمل الا والثاني كفو للاول فكان مهلهلاً جعل بجيراً كفواً لشسع نعل كليب.) فانضم الحارث الى قومه. فلما كان يوم قضة (ويسمى يوم التحلاق. يوم لبني بكر على بني تغلب) اسر مهلهلا واسمه عدي وهو لا يعرفه فقال له دلني على عدي واخلي عنك فقال مهلهل عليك العهد بذلك ان دللتك عليه؟ قال نعم. قال انا عدي. فجز الحارث ناصيته وتركه. وقال فيه:

لهف نفسي على عدي ولم اعـ   ـرف عدياً اذ امكنتني اليدان.

ومنها حفظ الجار. وللعرب في ذلك ماليس لغيرهم. فمن ذلك قصة رجل من بني ابي بكر بن كلاب: فان عمير بن سلمى اجاره وكان للكلابي اخ جميل. فقال له القرين اخو عمير « لا تردن باخيك هذا ابياتنا! » فرآه بعد بين ابياتهم فقتله وقيل وجده يتحدث مع امرأته. وكان عمير غائباً فاتى الكلابي قبر سلمى ابي عمير وقرين فاستجار به وقال:

واذا استجرت من اليمامة فاستجر ... زيد بن يربوع وآل مجمع

واتيت سلمياً فعذت بداره ... واخو الزمانة عائذ بالامنع

اقرين انك لو رأيت فوارسي ... بعمايتين الى جوانب ضلفع

حدثت نفسك بالوفاء ولم تكن ... للغدر خائنة مغل الاصبع

فلجأ قرين الى قتادة بن مسلمة الحنفي. فبذل قتادة للكلابي ديات مضاعفة. فابى. وقد لجأ قرين الى خاله السمين بن عبد الله فلم يمنع شيئاً منه فاخذه عمير ومضى به حتى قطع الوادي فربطه الى نخلة وقال للكلابي اما اذا ابيت الا قتله فامهل حتى اقطع الوادي وارتحل عن جواري فلا خير لك فيه. فقتله الكلابي وفي ذلك يقول عمير:

قتلنا اخانا للوفاء بجارنا ... وكان ابونا قد تجير مقابره

ومن ذلك قصة جساس فانه قتل كليباً الذي يضرب المثل بعزه بسبب قتله لناقة جارته.

ومن وفائهم قصة حاجب بن زرارة: فان العرب اجدبوا بسبب قول النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم اشدد وطأتك على مضر. وابعث عليهم سنين كسني يوسف.» توالت عليهم الجدوبة سبع سنين. فقدم حاجب على كسرى وشكا اليه ما حل بقومه وطلب منه ان يأذن لهم ان يكونوا في حد بلاده. فقال كسرى «انتم معشر العرب غدر فاذا اذنت لهم عاثوا في الرعية واغاروا.» قال حاجب «اني ضامن للملك ان لا يفعلوا.» قال «فمن لي بان تفي انت؟» قال «ارهنك قوسي» فلما جاء بها ضحك من حوله فقال الملك ما كان ليسلمها. اقبضوها منه ثم انه مات فوفى ابنه بضمان ابيه.

ومن ذلك قصة سيار بن عمرو الفزاري: فانه احتمل للاسود بن المنذر دية ابنه الذي قتله الحارث بن ظالم الف بعير من دية الملوك.

[illegible] الحادث [illegible]
[illegible]
[illegible] سطح
[illegible]
[illegible] ان
[illegible] الا [illegible]
[illegible]

[illegible]
[illegible] الالاف
[illegible] من انفسنا
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] والبيا
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] يمكن
[illegible]
[illegible] عدد
[illegible] علمه
[illegible] خلاف
[illegible] الانسان

ولا من قبيل تحجير الواسع بل من باب رحمة الشارع للانسان لطفاً له وشفقة منه اليه من ان يقع فيما يعود بضرر عليه .

ثم لا التباس ولا اشتباه بين تزوج من ينوى الطلاق و بين الزنا لان الطلاق مشروع . والعلة وهي اختلاط النسب منتفية : فانه ان بدا للذى قد كان نوى الطلاق عدم ارتكابه فالامر ظاهر، وان طلق فان الشرع الزم المرأة العدة وبانقضائها على الوجه المشروع يرتفع المحذور . و نكاح المتعة ايضاً فيما سلف قد كان مبيناً على العدة . فترى ان الاسلام حمى حماه بحدود تمنع ان يقع فيه معتد ويمتنع بها ما يرمى اليه هذا المعترض .

ثم ان مثل هذه المسائل الفقهية مسائل علمية دقيقة لا نعيب هذا المتحامل ان جهلها اوغابت عنه وله تحامل اشنع من هذا يدل على ان الرجل خليع العذار نزر الحياء سيئ الادب حيث يسمى الشهداء بالتعساء ويظهر منه ان الرجل لم يكن له غرض الا ان يطعن في الدين . لكن الشهداء رأوا ما لم يره هو وعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم مالم يعلمه هو .

ولو اردنا ان نعترض عليه كما اعترض هو علينا لامكننا . لكن نحن لا نريد ان نسيئ الوقاً لا ذنب لهم فيما فعل . ولنا اسوة فيما قال الله تعالى في سورة آل عمران (١٨٦)

« لتبلون في اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيراً . وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور . »

اما اذى المشركين فقد انقطع . واما اذى الذين اوتوا الكتاب فلا يزال يتدرج الى ماشاء الله .

قال المعترض : « ان العرب يستحيل معرفة الشخص منهم لابيه وان الانساب المعلومة عندهم وضعها ابن الكلبي . »

وهذا محض افتراء على العرب لان الانساب محفوظة عن من هو اقدم من ابن الكلبي واصدق منه . ثم ان ابن الكلبي وان كان طعن عليه في بعض ما نقل فان ذلك لم يتطرق الى كله .

والانساب محفوظة عند العرب يشهد له شواهد : فمن ذلك حديث ابي زرارة : قال خرج يزيد بن شيبان بن علقمة حاجاً فراى حين شارف البلد شيخاً يحفه ركب على ابل عتاق برحال ميس ملبسة ادماً قال يزيد فسلمت عليهم وبدأت به وقلت من الرجل ومن القوم ؟ فارم القوم ينظرون الى الشيخ هيبةً له . فقال الشيخ « رجل من مهرة بن حيدان ابن عمرو بن الحاف بن قضاعة . » فقلت حياكم الله وانصرفت فقال الشيخ «قف ايها الرجل ، نسبتنا فانتسبنا لك ثم انصرفت ولم تكلمنا . » قلت ما انكرت سوءاً . ولكن ظننتكم من عشيرتي فانا سبكم . فانتسبتم نسباً لا اعرفه . ولا اراه يعرفني . » قال يزيد فامال الشيخ لثامه وحسر عمامته وقال «لعمري لئن كنت من جذم من اجذام العرب لاعرفنك . » قلت فاني من اكرم اجذامها . قال الشيخ : « فان العرب بنيت على اربعة اركان مضر وربيعة واليمن وقضاعة . فمن ايهم انت ؟ » قلت من مضر . قال الشيخ « امن الارحاء ام من الفرسان ؟ » قال يزيد فعلمت ان الارحاء خندف وان الفرسان قيس فقلت من الارحاء . قال « فانت اذاً من خندف . » قلت اجل . قال « افمن الارنبة ام من الجمجمة ؟ » قال يزيد فعلمت ان الارنبة مدركة وان الجمجمة طابخة فقلت من الجمجمة . قال « فانت اذاً من طابخة . » قلت اجل . قال « افمن الصميم ام من الوشيظ ؟ » قال يزيد فعلمت ان الصميم تميم وان الوشيظ الرباب فقلت من الصميم . قال « فانت اذاً من تميم . » قلت اجل . قال « افمن الاكرمين ام من الاحلمين ام من الاقلين ؟ » قال يزيد فعلمت ان الاكرمين زيد مناة وان الاحلمين عمرو بن تميم وان الاقلين الحارث

[illegible]

قال « [illegible]

[illegible]

وذلت [illegible]

قال [illegible]

حنظلة وان الاردا [illegible]

[illegible] قال « [illegible]

البدور ام من [illegible]

مالك وان [illegible]

قال « [illegible]

الار [illegible] ام من [illegible]

وان اللبين [illegible]

قال « [illegible]

الوصاد [illegible]

الوصاد [illegible]

من [illegible]

[illegible]

قال « [illegible]

عشره : [illegible]

[illegible]

« [illegible]

[illegible]

وعمرو بن [illegible]

بنت حاجب بن [illegible] »

[illegible] الا كنت [illegible] احب الى ان [illegible] وابيك [illegible] »

[illegible] الصديق [illegible] :

[illegible]

هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف ؟ قال لا . قال افمنكم شيبة الحمد مطعم طير السماء الذى كان فى وجهه قمراً يضئ ليل الظلام الداجي ؟ قال لا . قال افمن المفيضين بالناس انت ؟ قال لا . قال افمن اهل الندوة انت ؟ قال لا . قال افمن اهل الرفادة انت ؟ قال لا . قال افمن اهل الحجابة انت ؟ قال لا . قال افمن اهل السقاية انت ؟ قال لا . قال علي واجتذب ابو بكر زمام ناقته فرجع الى النبي صلى الله عليه وسلم . فقال دغفل صادف درء السيل درءاً يصدعه ! اما والله لو ثبت لاخبرتك انك من زمعات قريش اوما انا بدغفل قال علي فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم . قال علي فقلت لابي بكر لقد وقعت من الاعرابي على باقعة . قال اجل ! مامن طامة الا وفوقها طامة . ان البلاء مؤكل بالمنطق .

اما حديث البخارى الذى جعله حجة قاطعة لعدم معلومية الاب عند العرب فانه لم يفهم معناه فقد صرح البخارى ان النكاح الموجود اليوم كان موجوداً فى الجاهلية ولم تزل عليه اشراف العرب ومن يليهم . وانما حدثت تلك الانواع الاخر فى العصر الاخير بعد عمرو بن لحى الذى حسن للعرب دين المجوس فصاروا يعبدون الاوثان وصارت فيهم البغايا وهن الاماء والسواقط ولا تكاد توجد منهن امراة من صميم العرب فضلاً عن قريش . فما اشتهر من البغايا بمكة النابغة وهى امة معلومة . وليست منهن وليدة زمعة بن الاسود التى عهد فى ابنها عتبة بن ابى وقاص الى اخيه سعد فتحاكم هو وعبد بن زمعة . فقضى به النبي صلى الله عليه وسلم لعبد وامر سودة بالاحتجاب منه لان ذلك شاذ نادر لا يعتد به . ومنهن بالطائف سمية جارية الحارث بن كلدة . ولما طلب ابو سفيان من الخمار الذى شرب عنده بغياً لم يجد غيرها مع كثرة اهل الطائف فقال هاتها على اوصافها الذميمة التى بين له

ولا يحتج بان اباسفيان كان من اشراف قريش لان الشاذ لايكون اصلا يقاس عليه .

استدل المعترض بالقسم الثانى من تقسيم البخارى وهو ان الرجل كان يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها ارسلى الى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها ابداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى استبضعت منه . فاذا تبين حملها اصابها زوجها اذا احب وانما يفعل ذلك رغبةً فى نجابة الولد . فهذا يدل ايضاً على ماذكرت لان هذا الذى امر امرأته ان تستبضع من الطبقة السفلى يدل عليه طلبه لولد نجيب . وذلك لعلمه انه لايأتى بنجيب . كما قال الفيلسوف ابو العلاء المعرى :

لو ان بنى افضل اهل عصرى　　لما آثرت ان احظى بنسل
فكيف وقد علمت بان مثلى　　خسيس لايجئ بغير فسل

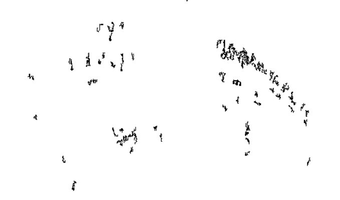
اما القسم الثالث من تقسيم الامام البخارى وهو جماعة ياتون امرأة واحدة فتلحق ولدها بمن شاءت منهم فانا نقول ان هذه معلومة عند العرب بانها بنى ذات جمال فيذهب اليها عدد من السفهاء والاحداث فيقع ماذكر . وهذه نادرة الوجود . وانما هى وقائع قليلة حدثت بعد عمرو بن لحى كما تقدم .

اما القسم الرابع فهو البغايا المعروفات اصحاب الرايات وهن اماء وقليل من الطبقة السافلة . يدل عليه الآية الثالثة بعد الثلاثين فى سورة النور « ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء ان اردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا . » لان الفتيات فى عرف القران لاتطلق الاعلى الاماء . يدل عليه الآية الرابعة بعد العشرين فى سورة النساء « ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت ايمانكم من

فتياتكم المؤمنات » ولو وجد شيء بين حرائر العرب لما [illegible] عن البغاء بالاماء . فخصيص [illegible] بالاماء يدل [illegible] ان البغاء لم يكن بين حرائر العرب وان [illegible] العرب عن [illegible] [illegible] نزول النهي عنه .

وقد [illegible] قصدنا في هذه [illegible] [illegible] العرب مما ينفي عنهم ما [illegible] [illegible] الذي [illegible] في ارتقائه (١) [illegible] نتعرض [illegible] [illegible] الزمان [illegible] [illegible] [illegible]

ولم [illegible] [illegible] اقالة [illegible] ذلك [illegible]



(١) [illegible]



المطبعة الكريمية بقازان مستعدة لطبع كل جريدة وكتاب واوراق بغاية الدقة والاتقان وغاية الجودة والصحة

وفيها يوجد كل انواع الحروفات والامهات الحديثة والقديمة العربية وغيرها .

وهذه المطبعة من احق المطابع فى روسيا

امانة وايفاءً لكل ما التزمته هى.

وكل معاملاتها مع مؤتمنيها ومعامليها جارية على طريق الامانة